# النشيد الثالث لعبد الربّ

## أشعيا ٥٠: ٤-٩

**الأب نجيب إبراهيم**

**النصّ**

آ ٤

آتاني السيّدُ الرّبُّ لسانَ تلميذ
لأعرف أن أسنُدَ المعيي بكلمة
ينبّه أذني صباحًا فصباحًا لأسمعَ كتلميذ.

آ ٥

السيّد الرّبّ فتح أُذُني
وأنا لم أَعصِ ولا رجعتُ إلى الوراء.

آ ٦

أسلمتُ ظهري للضّاربين وخدّي للناتفين
ولم أستُر وجهي عن الإهانات والبُصاق.

٥٠ : ٧

السيّد الرّبّ ينصرُني
لذلك لم أخجل من الإهانة
لذلك جعلتُ وجهي كالصّوّان
وعرفتُ أنّي لن أخزى.

آ ٨

قريبٌ مبرّري فمن يخاصمُني؟
فلنمثل معًا
مَن صاحبُ دعوى عليّ؟
فليتقدّم إليّ.
آ ٩
ها إنّ السّيدَ الرّبَّ ينصرُني
فمن الّذي يُجَرّمُني؟
ها إنّهم جميعًا كلباسٍ يَبلَون
العثُّ يأكلُهم.

**مقدّمة**

في أشعيا الثاني (أش ٤٠–٥٥)، تحتلّ أناشيد عبد الربّ مكانة مميّزة (٤٢: ١–٤؛ ٤٩: ١–٦؛ ٥٠: ٤ – ٩أ؛ ٥٢: ١٣–٥٣: ١٢). من حيث النوع الأدبيّ تؤلّف هذه النصوص نوعًا من الدراما المقدّسة الّتي تنتهي بموت وتمجيد عبد الربّ[1]. في النشيد الأوّل يقدّم الربّ مختاره واصفًا دعوته ورسالته في نشر الدين الحقّ في العالم كلّه. في النشيد الثاني (٤٩: ١–٦)، يتكلّم عبد الربّ على دعوته ورسالته والصعوبات الّتي تواجهه في التبشير بكلام الله. أمّا هدف رسالته فهو جمع أبناء الشّعب والقيام بدور وسيط الخلاص للبشر. في النشيد الثالث (٥٠: ٤–٩) يصف عبد الربّ رسالته كمعلّم يواجه معارضة قويّة، على أنّه يكمل الرسالة بعون الربّ. في النشيد الأخير (٥٢: ١٣–٥٣: ١٢) وصفٌ للآلام وللموت الفدائيّ لعبد الربّ البريء، إذ هكذا يبرّر النّاس أمام الله.

تختلف آراء المفسّرين حول أصل هذه الأناشيد وعلاقتها بسياق أشعيا الثاني. هناك فئة تقول أنّ هذه الأناشيد هي دورٌ مستقلٌّ عن السياق، وفئة أخرى تحاول إظهار

(1) Cf. S. VIRGULIN, *Isaia. Versione - Introduzione - Note* (Nuovissima vesione della Bibbia), Cinisella Balsamo (Milano) 1989, 238-241.

علاقتها الأدبيّة مع سائر فصول أشعيا الثاني. حسب النظريّة الثانية كاتب السفر هو نفسه واضع الأناشيد، مع إمكانية أن يكون أحد تلاميذ أشعيا الثاني قد أدخلها لاحقًا في هذا الجزء من سفر أشعيا. أعتقد أنّ النظريّة الثانية هي الأرجح، خاصّة في هذه المرحلة من الدراسات البيبليّة الّتي تشدّد على التفسير المتزامن (synchronique) والقانونيّ للنصوص، خلافًا للتفسير التعاقبيّ (diachronique).

كما يبحث المفسّرون في علاقة هذه النصوص بعضها ببعض. هل هي أناشيد لشخصيّة واحدة، أم يجب قراءة كلّ نشيد في سياقه الخاصّ لتحديد هويّة عبد الربّ، إذ يرجع اللقب إلى شخصيّات مختلفة في سفر أشعيا؟

يرتبط هذا النقاش بالجدال الحادّ حول تحديد هويّة عبد الربّ[٢]. من هو عبد الربّ في قصد الكاتب الملهم؟ علينا أن نبحث عن معنى لقب "عبد الربّ" في الكتاب المقدّس وفي أشعيا الثاني لتحديد هويّة صاحب الأناشيد.

**اللقب في الكتاب المقدّس**

إنّه لقب شرف وتكريم[٣]: إبراهيم هو عبد الربّ (تك ٢٦: ٢٤)؛ إسحق عبد الربّ (١ مل ١٦: ١٣)؛ موسى عبد الربّ (يش ١٤: ٧) وكذلك يشوع (يش ٢٤: ٢٩) وداود (٢ صم ٣: ٨) ودانيال (دا ٦ : ٢٠).

يدلّ هذا اللقب على رسالة معيّنة: مثلاً، رسالة صموئيل في ١ صم ٣: ١٠–١٤؛ ومهمّة الملك نبوخذنصر في إر ٢٧: ٦ وقورش في أش ٤٤: ٢٨–٤٥: ٣. وأخيرًا هذا اللقب يدلّ على رسالة "عبد الربّ" في أش ٤٢: ١–٤. ولا ننسى بولس الرسول الذي يقول في مقدّمة رسالته إلى أهل رومة: "من بولس عبد المسيح يسوع دعي ليكون رسولاً وأُفرد ليعلن بشارة الله".

(2) Cf. C. Wiéner, *Le deuxième Isaïe* (Cahiers Évangile 20), Paris 1977, 53-58; Vermeylen, J., « Isaïe », in Römer T. - Macchi, J.-D. - Nihan, C. (éd.), *Introduction à l'Ancien Testament* (Le monde de la Bible, nº 49), Genève 2004, 341-343.

(3) Cf. M. Conti, *La vocazione e le vocazioni nella Bibbia* (Pubblicazioni dell'Istituto pedagogico. Pont. Ateneo Antonianum 27), Brescia 1985, 279-299.

**اللقب في أشعيا الثاني**

يرد هذا اللقب ٢١ مرّة في أشعيا الثاني (الكلمة "عبد"–"عبادة" ترد ٢٣ مرّة في ٢١ آية: ٤١: ٨ و٩؛ ٤٢: ١ و١٩؛ ٤٣: ١٠ و٢٣ و٢٤؛ ٤٤: ١ و٢ و٢١ و٢٦؛ ٤٥: ٤؛ ٤٨: ٢٠؛ ٤٩: ٣ و٥ و٦ و٧؛ ٥٠: ١٠؛ ٥٢: ١٣؛ ٥٣: ١١؛ ٥٤: ١٧.

يرد هذا اللقب في أشعيا الثاني كاسم جماعيّ وكاسم شخصيّ أيضًا. إسرائيل ،مثلاً، يُدعى "عبد الربّ"، ويدلّ الاسم على العلاقة التي تربط الشعب بالربّ، وعلى الرسالة الموكلة إليه ،وهي أن يكون شعبًا كهنوتيًّا ونبويًّا وملوكيًّا بين سائر الشعوب (إقرأ ٤١: ٨–٩؛ ٤٣: ١٠ و٢٠؛ ٤٨: ١٠).

ويرد أيضًا هذا اللقب كاسم فرد يُطلق على قورش في ٤٨: ١٤–١٥، مع الملاحظة أنّ اسم قورش يرد بشكل واضح في ٤٤: ٢٨.

ولكنّ لقب "عبد الربّ" يرد بمعنى اسم فرديّ ويدلّ على شخص أكثر منه على جماعة في أناشيد عبد الربّ. لهذا الأخير صفات هي قبل كلّ شيء صفات شعب الله، يعقوب، إسرائيل. إذًا باستطاعتنا القول إنّ عبد الربّ يمثّل دعوة إسرائيل، ويحقّق رسالته في شعب الله وحتّى أقاصي الأرض.

على أنّنا لا نستطيع فصل النصّ عن تفسيره. بحسب التقليد اليهوديّ الموثّق(٤) في الترجوم وفي التفسير اليهوديّ القديم، وبحسب التقليد المسيحيّ كما يظهر جليًّا في العهد الجديد، فإنّ عبد الربّ هو المسيح. أناشيد عبد الربّ نبوءة تكشف عن أسلوب المسيح في الرسالة، وخاصّة عن آلامه وتمجيده لفداء العالم.

إذًا هناك ما يوحّد هذه الأناشيد، فنراها سيرة واحدة لشخصيّة واحدة، تترابط لترسم صورة عبد الربّ بأسلوب دراميّ متسلسل يصل بالقارئ إلى المعنى الكامل فقط في النشيد الأخير. وإذا أردنا دفع هذه الرؤية إلى نتيجتها الأخيرة لقلنا أن لا معنى نهائيًّا

(4) Cf. P. GRELOT, *Les poèmes du Serviteur. De la lecture critique à l'herméneutique* (Lectio divina 103), Paris 1981; B. CARRA de VAUX SAINT-CYR - C. DEFÉLIX - J.-N. GUINOT, *Le Serviteur souffrant (Isaïe 53)* (Cahiers Évangile. Supplément 97), Paris 1996.

لهويّة عبد الربّ إلاّ في العهد الجديد. انطلاقًا من هذه المبادئ نقرأ النشيد الثالث: بنية النصّ وسياقه وتفسيره على ضوء رسالة أشعيا الثاني ووحدة الكتاب المقدّس في عهديه القديم والجديد.

**النشيد الثالث، نبيّ يتألّم من أجل رسالته**

يبدأ هذا النّصّ (٥٠: ٤–٩) بكلام نبيّ لا نعرف لقبه إلاّ في التعليق التابع في ٥٠: ١٠–١١. في هذا النشيد يعبّر عبد الربّ عن ثقته بالله في متابعة رسالته رغم المعارضة. من الواضح أنّ الرسالة تخصّ الشّعب اليهوديّ الّذي يحتاج إلى تشجيع أحيانًا وإلى توبيخٍ أحيانًا أخرى، كما هو الحال في الفصول السابقة (٤٢: ٢٢؛ ٤٣: ٢٢؛ ٤٦: ١٢؛ ٤٨: ٤ و٨؛ ٤٩: ١٤)، خاصّة ما يرد في ٤٠: ٢٧–٣١، حيث نجد التعابير نفسَها: "فلِمَ تَقولُ يا يَعقوب وتَتَكَلَّمُ يا إسرائيل: "طريقي تَخفى على الربّ وحقّي يفوتُ إلهي؟"؛ أَما عَلِمتَ أوَما سمعتَ أنّ الربّ إلهٌ سرمديّ خالقُ أقاصي الأرض لا يتعبُ ولا يُعيي ولا يُسبرُ فهمه. يؤْتي التعبَ قوّةً ولفاقدِ القدرةِ يكثِرُ الحول. الفتيانُ يتعبونَ ويعيَون والشّبّانُ يعثرونَ عثارًا. أمّا الرّاجونَ للربّ فيتجدَّدونَ قوّةً، يرتفعونَ بأجنحَةٍ كالعقبان، يعْدُونَ ولا يعْيَون، يسيرون ولا يتعبون". يتكلّم إذًا عبد الربّ على أبناء شعبه، إذ بعضهم يقبلون رسالته وبعضهم الآخر يرفضونها.

المعارضة التي توصّلت إلى استعمال العنف ظهرت من بين أفراد الجماعة اليهوديّة، إذ ليس هناك ما يدعو إلى اعتبار الاضطهاد آتيًا من السلطة السياسيّة البابليّة: المتكلّم في السجن ينتظر حكم القضاء. تدلّ عبارة "ظلمات" على السجن في الكتاب المقدّس، كما في أش ٤٢: ٧ و٤٩: ٩. على أنّ عبارة "السير في الظلمات" لها معنى مجازيّ يدلّ على عدم معرفة كلام الله: "لا يعلمون ولا يفهمون، وفي الظلمة يسيرون" (مز ٨٢: ٥)؛ فالعنف الّذي يتحمّله عبد الربّ لا يأتي من السلطلة السياسيّة بل من أبناء شعبه الذين لا يقبلون تعليمه.

يواجه المفسّرون صعوبات في تحديد سياق النصّ في أشعيا الثاني (٤٠–٥٥). لا نجد ما يربط النشيد بما يرد قبله، على أنّ ما يتبع في الفصل ٥١ له علاقة به؛ فالكلام موجّه إلى الشّعب الّذي ما زال يؤمن بالخلاص بوجه من يعارضه: "إسمعوا لي يا عارفي

البرّ، الشّعب الذي في قلبه شريعتي، لا تخافوا إهانة الناس، ومن شتائمهم لا ترتاعوا" (٥١: ٧). كما تجدر الإشارة إلى أنّ الكاتب يستعمل الصورة نفسها للتعبير عن مصير هؤلاء الخصوم: "لأنّه كالثوب يأكلهم العثّ، وكالصّوف يقرضهم السّوس" (٥١: ٨؛ رج ٥٠: ٩).

وما هو أهمّ في فهم سياق النصّ يكمن في الأسلوب. أش ٥٠: ٤–٩ واحدٌ من النّصوص النبويّة حيث الأفعال بضمير المتكلّم، والنبيّ يتكلّم على ذاته، على رسالته. نسمع هذا الصوت لأوّل مرّة باحثًا عن رسالته في أش ٤٠: ٦: "صوتُ قائلٍ: "ناد". فقال: "ماذا أنادي؟". وفي النشيد الثاني لعبد الربّ، نسمع هذا الصوت من جديد يتكلّم على خبرة فشل في الرسالة: "فقلتُ: "إنّي باطلاً تعبتُ، وسدى وعبثًا أتلفتُ قوّتي". إلاّ أنّ حقّي عند الربّ وأجري عند إلهي" (٤٩: ٤). بوسعنا الاستنتاج إذًا أنّنا نسمع الصوت نفسه في ٥١: ٤–٩؛ فالنبيّ يواجه صعوبات أكبر في رسالته لدى الشّعب. وعليه يقول جوزف بلنكينسوب[٥] أنّ المتكلّم في النشيد الثاني لعبد الربّ (أش ٤٩: ١–٦) والنشيد الثالث (٥٠: ٤–٩) هو الكاتب نفسه "أشعيا الثاني"، الذي يواجه معارضة متنامية ضدّ رسالته، إذ لا فرق في اللغة والأسلوب بين النشيد الثالث لعبد الربّ والصفات العامّة لأشعيا الثاني؛ نذكر على سبيل المثال ما يتعلّق بعبارات القضاء في آ ٨–٩.

يقول كلاوس واسترمن[٦] أنّه يمكن فهم هذا النشيد أكثر من أناشيد عبد الربّ الأخرى، إذ بالإمكان تحديد مصدر كلّ أجزائه. يؤكّد كثيرٌ من المفسّرين أنّ النوع الأدبيّ لهذا النشيد هو الشكوى، كما يظهر في ٥٠: ٥–٦، على أنّنا لا نجد الشكوى في كلّ الآيات. ومنها ما يعبّر عن الثقة بالله الّذي ينصر البارّ كما في آ ٧ و٨ و٩. لذلك يجب تحديد العلاقة بين آيات الشكوى وآيات الثقة بالله. وبما أنّ الكلام يدور حول مساعدة المعيي، يجب القول أنّ هذا النشيد هو من فئة شكوى الوسيط الّذي يعرض الآلام التي يحتملها بسبب الرسالة الموكلة إليه. نجد هذا النوع الأدبيّ في نصوصٍ

(5) J. Blenkinsopp, *Isaiah 40 - 45. A New Translation with Introduction and Commentary* (The Anchor Bible 19 A), New York 2002, 320.

(6) C. Westermann, *Isaia. Capitoli 44-66*, Brescia 1978, 273.

قليلة، خاصّة ما يرد في اعترافات إرميا النبيّ[٧]. تظهر في هذه النصوص العلاقة بين الرسالة والشكوى.

تحمل الآيتان ٥ و٦ صدى آلام كبيرة، كالّتي يعبّر عنها إرميا في صلوات الشكوى التي يرفعها إلى الربّ، وفيها عبارات الثقة بالله رغم المعاناة بسبب الرسالة الموكلة إليه: "قد استغويتَني يا ربّ فاستُغويت، قبضتَ عليَّ فغلبتَ، صرتُ ضُحكةً كلّ النّهار، فكلّ واحدٍ يستهزئُ بي...، فصار لي كلامُ الربّ عارًا وسُخريةً طولَ النّهار" (٢٠: ٧–٨). لا يمكن فهم هذه الشكوى إلاّ على ضوء الرسالة الموكلة إلى النبيّ، إذ عليه أن ينقل كلام الربّ إلى شعب لا يريد الإصغاء.

هكذا تظهر جليّةً العلاقة بين الآيات الأولى من النشيد الثالث للعبد (٥٠: ٤–٥أ) والآيات التالية، بين قبول رسالة الكلمة والمعاناة من أجلها. ما يبيّن صفات التشابه بين هذا النشيد وشكوى إرميا النبيّ: أش ٥٠: ٤–٩ هو اعتراف ثقة وسيط كلمة الربّ. في هذا النشيد يعبّر إذًا عبد الربّ عمّا يحدث له من معاكسات وما يتحمّله من إهانات بسبب طاعته لكلام الله.

* * *

**تلميذ الربّ (أش ٥٠: ٤–٥أ)**

"آتاني السيّدُ الربّ لسانَ تلميذ، لأعرف أن أسنُدَ المعيي، بكلمة ينبّه أذني صباحًا فصباحًا لأسمعَ كتلميذ. السيّد الربّ فتح أذني".

ترد عبارة "السيّد الربّ (אֲדֹנָי יְהוִה) أربع مرّات في هذا النشيد، وهي فريدة إذ لا ترد في الأناشيد الأخرى. ترسم هذه الآية والقسم الأوّل من الآية التالية وجه من يصغي إصغاء يوميًّا ويقوم برسالته رغم المعارضة. إنّه مؤهّل لنشر كلام الله، إذ إنّ الله نفسه يلقّنه ما يجب أن يقول (رج ٥٤: ١٣). وفي حالتي الإصغاء والتكلّم يظهر عبد الربّ كتلميذ يقبل الكلام من الله وله يقوم بالرسالة. يكشف الكاتب الملهم عن دور الربّ الأوّليّ في الإصغاء وفي الكلام. إذ لا يمكن أن يسمع إن لم ينبّه الربّ أذني التلميذ، ولا

(٧) هذا ما يؤكّده أيضًا جوزيف بلنكينسوب، ٣٢٠.

يتكلّم إن لم يهبه لسان تلميذ. يعبّر المتكلّم عن إيمانه بدعوته الإلهيّة؛ فالربّ هو الذي يعطي هبة الإصغاء والكلام على السواء. يفتح أذن التلميذ وقلبه ليقبل الكلمة بإيمان. يستعمل الكاتب فعل "نبّه"، "أيقظ" الأذن، وهذا يقابل عبارة أكثر استعمالاً في الكتاب المقدّس: "والربّ كَشَفَ أُذُنَ صَمُوئِيل" (١ صم ٩: ١٥). والآية تدلّ على الاستعداد الدائم لقبول وحي الله، خاصّة في الصباح، والصباح في التقليد هو الوقت المناسب لقبول الوحي، على ما نقرأ في المزمور: "يا ربّ في الصّباح تسمع صوتي، وفي الصّباح أتأهّبُ لك وأترقّب" (٥: ٤؛ رج ٤٦: ٦). أمّا الضرورة المطلقة للإصغاء إلى هذا الصوت الإلهيّ في داخل الإنسان فهي تقليد نبويّ أكيد. يقول النبيّ ميخا لرسول الملك الذي يطلب منه أن يتكلّم بخير الملك مثل سائر الأنبياء: "حيٌّ الربّ! لن أقول إلاّ ما يقوله الربّ لي" (١ مل ٢٢: ١٤).

كما يؤكّد عبد الربّ أنّه لا يأتي بالكلام مثل معلّم، إذ إنّه يبقى كتلميذ عندما يقوم بالرسالة؛ فالمعلّم وسيّد الكلمة هو الربّ، وما رسالة عبد الربّ سوى نقل لما يقبله بإيمان وتواضع من الربّ. تجدر الإشارة إلى أسلوب النبيّ في الرسالة: يقوم أمام الله صباحًا فصباحًا فاتحًا قلبه للإصغاء ليتعلّم كيف ينقل كلام العزاء إلى الناس.

يقوم العبد بالرسالة في ظروف معيّنة، إنّه يتعلّم كيف يُسند المعيي، كما يفعل الله في آ ٢٨–٣٠ من الفصل أربعين، حيث يقول النبيّ أنّ الربّ "لا يتعب ولا يُعيي ولا يُسبَرُ فهمُه"، وهو "يؤتي التّعِبَ قوّة، ولفاقد القدرةِ يُكثِرُ الحول" (أش ٤٠: ٢٨–٢٩). في هذا النّص إسرائيل هو التّعب، والربّ يسنده ويقوّيه ليسير ولا يتعب. هنا أيضًا إسرائيل هو التّعب المحتاج إلى من ينبّهه ليسمع كلمة العزاء من الربّ.

باستطاعتنا وصف رسالة النبيّ في هذا النصّ، والذي يتلّخص بالإصغاء وبالتكلّم كتلميذ. تلميذ هو من يذهب إلى المدرسة للتعلّم. وفي هذا خصوصيّة وظيفة النبيّ: يفتح النبيّ أذنيه كلّ يوم، عليه أن يدع الله يفتح أذنه ليكون باستطاعته مساندة المعيي. تجدر الإشارة إلى أنّ عبارة "لِمُود" تدلّ على التلميذ الّذي يتعلّم على يدي إنسان معلّم، كما نقرأ في أش ٨: ١٦. أمّا هنا فنحن أمام تلميذ يقبل الكلمة مباشرة من الله. وهذا هو حال النبيّ في شعب العهد. يدعوه الله لرسالة معيّنة، كاشفًا له عن كلمته الخلاصيّة التي يجب عليه أن ينقلها إلى الشّعب. في هذه الآيات الأولى من النشيد يصف إذًا عبد الربّ

دعوته كنبيّ. على أنّنا لا نجد لقب "عبد الربّ" في آيات النشيد (٥٠: ٤–٩)، بل في ٥٠: ١٠. والعبد أكثر من تلميذ.

* * *

### قبول آلام الرسالة (أش ٥٠: ٥ب–٦)

"وأنا لم أعصِ ولا رجعتُ إلى الوراء. أسلمتُ ظهري للضّاربين وخدّي للناتفين، ولم أستُر وجهي عن الإهانات والبُصاق".

تُظهرُ الترجمة أنّ حرف العطف في العبريّة (וְאָנֹכִי) له معنى اعتراضيّ استدراكيّ: وأنا فلم أعصِ، لكنّي لم أعصِ. وكأنّي بالكاتب ينوّه بخبرة عداوة ومواجهة وإهانة. أمّا الاستدراك فيدلّ على أنّ عبد الربّ لم يتراجع ولم يعصِ. لا يفصح العبد عن سبب الإهانات والعداوة، بل يعبّر عن إيمانه بدعوته رغم كلّ شيء. وبهذا يختلف عبد الربّ عن إرميا النبيّ في الشكوى، إذ يقبل الألم حبًّا برسالة الكلمة. نحن أمام منعطف كبير في تاريخ الخلاص: بعد شكوى وسيط الكلمة بسبب الاضطهاد والاحتقار تبرز ولأوّل مرّة الموافقة على هذه الآلام؛ ففي الآيات الأولى (٤ و٥) نرى أنّ عبد الربّ لم يرفض الإصغاء إلى كلام الله والتبشير به رغم المعاناة. هناك من يحاول صدّه عن الإصغاء ولكنّه لم يتراجع أمام الضغوط. في آ ٦ يرفع عبد الربّ شكواه بسبب الإهانة والألم، كما هو الأمر في كلّ شكوى. على أنّنا لا نجد ما يقابلها في سائر أسفار العهد القديم. يؤكّد كلاوس وسترمن أنّنا أمام تحوّل جذريّ في تاريخ إسرائيل وفي كلّ التاريخ القديم، إذ لا يتعرّض عبد الربّ للإهانة والضّرب فحسب، بل "يُسلم ظهره للضّاربين وخدّه للناتفين"، وكأنّي به يرى الآلام آتية من علُ!

* * *

### ثمن إكمال الرسالة (أش ٥٠: ٧)

"والسيّد الربّ ينصرُني، لذلك لم أخجل من الإهانة، لذلك جعلتُ وجهي كالصّوّان وعرفتُ أنّي لن أخزى" (٥٠: ٧).

هنا أيضًا واو العطف لها معنى اعتراضيّ استدراكيّ: ولكنّ السيّد الربّ، ممّا يظهر نوعًا من التباين بين هذه الآية وآ ٦، بين الثقة بنصرة الله والآلام الّتي يتحمّلها. يبدو أنّ الربّ يقبل ما يصيب عبده من آلام، والعبد بدوره يتحمّلها وكأنّها آتية من لدنه. والمفارقة بين الآيتين تظهر في استعمال الكلمات؛ فالفعل "أخجل" (נִכְלַמְתִּי) والاسم "إهانات" (כְּלִמּוֹת) كلمتان من مصدر واحد (כָּלַם). ولا يمكن اعتبار التباين مجرّد تعاقب زمني: اليوم أتحمّل الإهانات ولكنّ الربّ سوف يزيلها عنّي في الغد. حتّى ولو أخذنا بهذا التعاقب الزمنيّ، من الأكيد أنّ الكاتب يريد إبراز علاقة كلّ هذه الأحداث بعمل الله الخلاصيّ. يقبل عبد الربّ ما يصيبه لأنّه يعرف أنّ الله يسمح بها في تصميمه الخلاصيّ. يقول عبد الربّ: "وأنا عالمٌ بأنّي لا أخزى"، لذلك "جعلتُ وجهي كالصّوّان". ولنا في إرميا (١: ١٨) وحزقيّال (٣: ٨–٩) ما يشبه هذه العبارة مع فارق مهمّ. في إرميا وحزقيّال نجد وصفًا لما وهبه الله للنبيّ ليشجّعه على المضيّ في الرسالة رغم الصعوبات. يقول الربّ لإرميا: "فإنّي هاءنذا قد جعلتك اليومَ مدينةً حصينةً وعمودًا من حديد، وأسوارًا من نُحاس على كلّ الأرض، على ملوك يهوذا ورؤسائه وكهنته وشعب الأرض، فيحاربونك ولا يقوون عليك، لأنّي معك، يقول الربّ، لأُنقذَك" (١: ١٨–١٩). وفي حزقيّال نقرأ: "هاءنذا قد جعلتُ وجهك صلبًا كوجوههم، وجبهتك صُلبة كجباههم. لقد جعلتُ جبهتَك مثل الماس وأصلب من الصّوّان، فلا تخف منهم ولا ترتعب من وجوههم، فإنّهم بيتُ تمرّد" (٣: ٨–٩). بينما في هذا النشيد، يتكلّم عبد الربّ على نفسه. والفارق يكمن في أنّ عبد الربّ يتقبّل بشكلٍ إيجابيّ ما يصيبه من ضربات وإهانات. لذلك جعل وجهه كالصّوّان. نرى في ملامح عبد الربّ ما يشبه الأنبياء، على أنّه يحمل خطًّا جديدًا في تاريخ الخلاص، ما يبيّن ارتقاء الوحي الإلهيّ نحو ملئه.

* * *

**الربّ ينصرني (أش ٥٠: ٨–٩)**

"قريبٌ مبرّري فمن يخاصمُني؟ فلنمثل معًا. مَن صاحبُ دعوى عليّ؟ فليتقدّم إليّ. ها إنّ السّيدَ الربّ ينصرُني، فمن الّذي يُجَرِّمُني؟ ها إنّهم جميعًا كلباسٍ يَبلَون، العثُّ يأكلُهم."

يعبّر الكاتب الملهم عن الثقة بأنّ الله إلى جانب عبده بتعابير الدعوى القضائيّة. يعدّد المفسّرون تعابير المحاكمات في هذه الآية:

– مبرّري (מַצְדִּיקִי): إثبات براءة المتّهم أو إصدار حكم بالبراءة (رج أش ٤٣: ٩ و٢٦؛ ٥٣: ١١).

– من يُجرّمُني، يدينني (יַרְשִׁיעֵנִי): إثبات جرم المتّهم أو إصدار حكم بأنّه مذنب (رج أش ٥٤: ١٧).

– فمن الّذي يخاصمني (מִי־יָרִיב אִתִּי): دعوى قضائيّة ضدّ جهة أخرى (رج أش ٤١: ١١ و٢١؛ ٤٩: ٢٥).

– فلنمثل معًا (נַעַמְדָה יָּחַד): المشاركة في دعوى قضائيّة (رج أش ٤٤: ١١؛ ٤٧: ١٣).

– من صاحب دعوى عليّ؟ (מִי־בַעַל מִשְׁפָּטִי) (رج أش ٤١: ١؛ ٥٣: ٨).

– فليتقدّم إليّ (יִגַּשׁ אֵלָי): مباشرة دعوى (رج أش ٤١: ١ و٢١–٢٢؛ ٤٥: ٢٠–٢١).

يستعمل بولس الرسول تعابير مشابهة في رسالته إلى أهل رومة ٨: "إذا كان الله معنا، فمن يكون علينا؟ ... فمن يتّهم الّذين اختارهم الله؟ الله هو الّذي يبرّر! ومن الّذي يُدين؟" (رج ٨: ٣١–٣٨). يدعو عبد الربّ أولئك الذين يضطهدونه بالشتم والضرب إلى المحكمة، فهو على ثقة بأنّ الله سوف يبرّره ولن يقوى أحد على إدانته. أمّا بالنسبة إلى مضطهديه فهو مذنب ينال عقابه، ممّا يجعل من الصعوبة بمكان الإجابة على سؤال عبد الربّ: "ها إنّ السيّد الربّ ينصرني، فمن الّذي يجرّمُني؟". وآ ٩ لا تجيب بشكل واضح نهائيّ على السؤال، ولا تتعدّى كونها أمنية بحسب تقليد المزامير: "ها إنّهم جميعًا كلباسٍ يبلَون، العثُّ يأكلُهم". يبقى التساؤل مفتوحًا إلى أن نجد الجواب في النشيد الرابع، لا بل أبعد من ذلك في العهد الجديد.

يختلف المفسّرون حول تفسير الآيتين ١٠–١١: هل هي جزء من النشيد أم تعلّيق عليه؟

بما أنّ الأفعال ما عادت بصيغة المتكلّم، يظهر أش ٥٠: ١٠–١١ كنوع من التعليق لتنبيه السّامعين إلى ما يجب اختياره: خوف الربّ والإصغاء إلى صوت عبده، أو السير في الظلمات بعيدًا عن نبع النّور. يبدو أنّ أحد تلاميذ عبد الربّ يقوم بهذا الدور لتوعية أبناء الشّعب. إنّه يميّز بين الّذين يخافون الربّ ويقبلون الرسالة النبويّة، مشجّعًا من هم في حيرة من أمرهم ليثقوا بأنّ كلامه سوف يتحقّق، وبين أولئك الذين يختارون الحياة في نورهم الشخصيّ وهو ليس إلاّ ظلمة ومصيرهم الموت. لا تساهم هذه الخاتمة في فهم النصّ وحسب، بل في إلقاء الضوء على أش ٤٠–٦٦؛ فالكلام موجّه إلى "السائرين في الظلمة" حتّى يثقوا بكلام عبد الربّ. والحكم على العصاة في آ ١٠ يذكّر في خاتمة الكتاب: "ويخرجون ويرَون جثثَ النّاس الذين عصَوني، لأنّ دودَهم لا يموت، ونارَهم لا تُطفأ، ويكونون رُذالةً لكلّ بشر" (أش ٦٦: ٢٤).

**الخاتمة**

يظهر النشيد الثالث لعبد الربّ بمثابة سيرة ذاتيّة تحكي قصّة نبيّ أمين لرسالته، وهو مستعدّ لتحمّل المسؤوليّة حتّى النهاية، رغم الصعوبات والمعارضة والعنف. يحقّق عبد الربّ رسالته الموكلة إليه كنبيّ. تساهم القراءة الشاملة للأناشيد الأربعة على كشف دراما في تطوّر نحو القمّة في النشيد الأخير. في النشيد الأوّل نرى كيف أنّ الله يدعو عبده للرسالة، وفي النشيد الثاني يعترف عبد الربّ بصعوبة المضيّ قدمًا بسبب الفشل، وهو القائل: "إنّي باطلاً تعبتُ، وسُدىً وعبثًا أتلفتُ قوّتي" (أش ٤٩: ٤). على أنّه يثق بالله إذ يقول: "إلاّ أنّ حقّي عند الربّ، وأجري عند إلهي". والربّ يرسله من جديد لا ليجمع إسرائيل وحسب، بل ليكون نورًا للأمم (رج ٤٩: ٤–٦). أمّا في النشيد الثالث فنحن أمام تطوّر مهمّ، إذ ينتقل عبد الربّ من خبرة الشكوى والفشل إلى خصومة عنيفة. لا يشكو أمره للربّ، كما في النشيد الثاني، بل يقبل الضربات والإهانة بإيمان من يعرف أنّ الله منتصر له ومبرّره لا محال.

إنطلاقًا من السياق التاريخيّ باستطاعتنا القول أنّ رسالة عبد الربّ تكمن في تهيئة الشّعب للعودة من الجلاء في بابل إلى الأرض المقدّسة (أش ٤٠–٤٨)، والعمل على ترميم ما تهدّم في الدّين والمجتمع لإظهار مجد الله أمام الأمم (أش ٤٩–٥٥).

وقد أوكِل إليه، بصفته نورًا للأمم، أن يعلن أمام الملأ شموليّة الخلاص، ذلك الخلاص الّذي تنتظره الجزر البعيدة (أش ٤٢: ٤). يضع عبد الربّ كلّ قواه في خدمة رسالة التجديد الروحيّ لشعبه (أش ٤٩: ٥–٦)، ونشر الدّين القويم في الأرض كلّها (أش ٤٢: ١–٤). وهو يقوم برسالته بأسلوب سلميّ منفتح على الرجاء، إذ لا يصيح، ولا يرفع صوته، ولا يُسمعُ صوتَه في الشّوارع. القصبة المرضوضة لن يكسرَها، والفتيلةُ المدخّنةُ لن يُطفئَها (أش ٤٢: ٢–٣). بصفة نبيّ على صورة موسى يقدّمه الربّ لكلّ الأمم وسيطًا للوحي ومعلّمًا ومشرّعًا للدين القويم (أش ٤٢: ١ و٤). يبدأ عبد الربّ رسالته، وهو غنيّ بمواهب روح الربّ، بالتجديد الروحيّ لأبناء شعبه، لينتقل إلى رسالة تشمل كلّ البشر، داعيًا إلى الخلاص في وحدة الدعوة النبويّة والكهنوتيّة والملكيّة لشعوب تعبد وتمجّد الله الواحد (أش ٤٥: ١٤–١٩؛ ٥١: ٤–٨). يُعطَى عبد الربّ ألقاب شعب العهد. وهو بذلك يوجزُ في شخصه دعوة شعب الله ورسالته في تاريخ الخلاص، لا بل يظهر وكأنّه مندوب الله على الأرض بسبب إعطاء بعض العبارات إلى الربّ وإلى عبده (رج ٥١: ٥ و٤٢: ٤؛ ٤٢: ١ و٤٩: ١؛ ٤٥: ٢٢: ٥٢: ١١، ١٢). يجمع عبد الربّ في شخصه ورسالته الملامح الأكثر تميّزًا في أبطال شعب العهد القديم وأنبيائه. إذ نكتشف فيه خلاصة التيّارات الروحيّة النبويّة منها والحكميّة والكهنوتيّة وما نجده في فقراء الربّ (العناويم) والمسيحانيّة الملكيّة. على أنّ رسالته تتميّز ببعد روحيّ شموليّ متحرّرٍ من كلّ ربط سياسيّ وطنيّ، لذلك لا مثيل له في العهد القديم[٨].

يحقّق هذا النبيّ المجهول دعوته كعبد متألّم، إذ إنّ الأمانة للرسالة حتّى الاستشهاد، تمنح عبد الربّ تحقيق ذاته لا كنبيّ وحسب، بل كشهيد بارّ (أش ٥٠: ٥–٦). أعمل عبد الربّ الفكر بما جرى أثناء فترة الجلاء وبعده وما قام به الأنبياء، خاصّة إرميا وحزقيّال، وبما آلت إليه أحوال الشّعب من إذلال واضطهاد وألم، فتوصّل إلى فهم القيمة الخلاصيّة لآلامه. وبمنطق الربّ قَبِلَ سرّ الألم في رسالته النبويّة (أش ٥٠: ٦)، ليصبح خادم الخلاص لا بالكلمة وحسب، بل بالآلام أيضًا. يروي النشيد الرابع آلام عبد الربّ في صورة ضحيّة من أجل خلاص الشّعب وسائر البشر. في النشيد الرابع نصل إلى خاتمة دراما عبد الربّ وفيها ينال الشّعب الخلاص والعبد نصيبًا بين العظماء.

(8) Cf. S. VIRGULIN, *Isaia,* 249.

أبعد من الأصل التاريخيّ والمعنى الأوّل، تلقى أناشيد عبد الربّ امتدادًا جوهريًّا في العهد الجديد[٩]، إذ يعطيها ملء المعنى[١٠]. باستطاعتنا القول أنّ عبد الربّ هو الشخصيّة الأقرب إلى المسيح، فادي الجنس البشريّ[١١]. للنشيد الثالث أصداء في بعض النصوص، نذكر منها لوقا القائل في يسوع: "ولمّا حانت أيّام ارتفاعه، قسّى وجهه للاتّجاه نحو أورشليم" (٩: ٥١)؛ في رو ٨: ٣٣–٣٤ يستعمل بولس مفردات الدعوى القضائيّة، كما فعل الإنجيليّ في يو ٨: ٤٦. نذكر خاصّة رواية آلام المسيح (رج مت ٢٦: ٦٧؛ ٢٧: ٣٠ والنصوص الموازية).

يقتدي بولس الرسول بالمسيح معطيًا معنى خلاصيًّا لعمله الرسوليّ. أتمّ المسيح الخلاص بموته وقيامته ولا ينقص شيء لعمل الخلاص، على أنّ الرسول يرى في أتعابه الرسوليّة خدمة من أجل نشر الإنجيل الّذي يعطي الخلاص لمن يقبله بإيمان. هكذا يمكن القول أنّه يشارك المسيح في عمله الخلاصيّ. لا يقبل الألم في الرسالة وحسب، مثل عبد الربّ، بل يجرؤ بالمسيح على القول: "يسرّني الآن ما أعاني لأجلكم، فأُتمّ ما نقص من شدائد المسيح في جسدي، في سبيل جسده الذي هو الكنيسة" (كول ١: ٢٤). من نبيّ يشكو أمره لله، ويقبل لاحقًا آلام الرسالة لشفاء النّاس من الشّرّ، نصل في العهد الجديد إلى تظهير الصّورة، وتوضيح الهويّة في المسيح، وسرّ آلامه الخلاصيّة، ولا يبقى لمن يتبعه بالإيمان والمحبّة سوى فرح الاتّحاد بموته وقيامته في سبيل الكنيسة والإنسانيّة جمعاء.

(9) Cf. VERMEYLEN, J., « Isaïe », in Römer T. - Macchi, J.-D. - Nihan, C. (éd.), *Introduction à l'Ancien Testament* (Le monde de la Bible, nº 49), Genève 2004, 343.

(10) Cf. WIÉNER, C., *Le deuxième Isaïe,* 55-56; P. BENOIT, « Jésus et le serviteur de Dieu », in: J. DUPONT, *Jésus aux origines de la chirstologie*, Leuven-Gembloux 1989, 110-140.

(11) S. VIRGULIN, *Isaia*, 249.

## المراجع


Benoit, P., « Jésus et le serviteur de Dieu », in: Dupont, J., *Jésus aux origines de la chirstologie*, Leuven-Gembloux 1989, 110-140.

Blenkinsopp, J., *Isaiah 40 - 45. A New Translation with Introduction and Commentary* (The Anchor Bible 19 A), New York 2002.

Carra de Vaux Saint-Cyr, B. - Defélix, C. - Guinot, J.-N., *Le Serviteur souffrant (Isaïe 53)* (Cahiers Évangile. Supplément 97), Paris 1996.

Conti, M., *La vocazione e le vocazioni nella Bibbia* (Pubblicazioni dell'Istituto pedagogico. Pont. Ateneo Antonianum 27), Brescia 1985.

Grelot, P., *Les poèmes du Serviteur. De la lecture critique à l'herméneutique* (Lectio divina 103, Paris 1981.

Vermeylen, J., « Isaïe », in Römer T. - Macchi, J.-D. - Nihan, C. (éd.), *Introduction à l'Ancien Testament* (Le monde de la Bible, nº 49), Genève 2004, 329-344.

Virgulin, S., *Isaia. Versione - Introduzione - Note* (Nuovissima vesione della Bibbia), Cinisella Balsamo (Milano) 1989.

Westerman C. , *Isaia. Capitoli 44-66*, Brescia 1978.

Wiéner C., *Le deuxième Isaïe* (Cahiers Évangile 20), Paris 1977, 53-58.